الفتوة الصوفية والقومية العربية

للاستاذ طه عبد الباقى سرور

بين الضفاف الخالدة حيث يتدفق تيار التاريخ ، فوق العباب الثائر من بردى والفرات والنيل ٠

وعلى القمم المضيئة ، للهضاب المقدسة ، فى مكة والمدينة وبيت المقدس ٠

وعلى الرمال الذهبية ، فى الاودية العربية ، التى شهدت خطو موسى ، وعيسى ، ومحمد ، صلوات الله وسلامه عليهم ٠

هنا وهناك فى الارض المباركة ، حيث رفت أجنحة الملائكة ، ورفرفت أعلام الديانات والرسالات ، تتلالأ أضواء فجر ، وتشع اشراقات بعث ، وتتجمع قوى ، وتتدفق ثورات ، عليها من رضاء الله توفيق ، وفيها من هدى النبوة بريق ، لتصنع من جديد دعوة ورسالة ، ونهضة مختارة ، يحمل أعلامها ، ويشعل مصابيحها ، أحفاد الرسل ، وورثة الانبياء ٠

لقد وثبت القومية العربية ، الى النور والحياة ، فاستدار لها الزمان ، وخفق قلب الوجود ، لقد جاءت على ميقات وقدر ، لتمسك بالميزان فى أخطر بقعة من بقاع الكوكب الارضى ، ولتقول كلمة الفصل فى مستقبل الانسان والاخلاق والايمان ٠

جاءت لتفجر الطاقة الهائلة الكامنة فى أعرق شعوب الارض ، وأعظمها استعدادا لحمل الرسالات ، وصنع التاريخ ٠

جاءت لتغير من أوضاع القوى العالمية ، المادية والروحية ، ولتصنع برزخا فاصلا بين دعوتين وقوتين ، جاءت لتمثل قوة التوازن الدولى ٠ بل قوة الروح الخلقى ، ولتدفع بمبادئها ومناهجها الى أفق الحياة ٠

وبذلك دخلت القومية العربية ، النطاق العالمى ، والمجال الدولى ، كقوة صامدة ، وكقوة صاعدة ، وكدعوة ورسالة ، موجهة وملهمة ٠

ومن هنا أصبحت هذه الدعوة العالمية النامية فى حاجة الى خطوط روحية ايجابية ، تقيم عليها وجودها ، فى حاجة الى فلسفة خلقية عملية ، تمثل وجهها ، وتحدد أغراضها ، فى حاجة الى دعامات مثالية مضيئة تستمد منها بأسها ورسالتها ٠

اننا فى حاجة الى تلك الخطوط العريضة لبناء جيل عربى واع مستنير مؤمن ، يدرك رسالته حيال القومية العربية ، كما يدرك رسالته الانسانية العالمية .

جيل قوى طاهر ، يثق بنفسه وبأمته ، ويستمسك بمبادىء الحق والخير ، ويستهدف المثل العليا ، فى السلوك الفردى والاجتماعى ، ويملك ارادة النضال المشترك ، والعمل الايجابى فى سبيل الخير العام .

والتصوف الاسلامى ، أو القوة الروحية الاسلامية ، تملك أن تقدم للقومية العربية فى سخاء ، زادها الروحى والايمانى والخلقى ، كما تملك أن تمدها بالحرارة والعزم ، والتصميم الحاسم .

لقد أوجد التصوف الاسلامى فى مناهجه للتربية والحياة ، نظام الفتوة الصوفية ، وهو النظام الروحى العسكرى ، الذى يصوغ المواطن الصالح ، المؤمن القوى ، ويصنع الرجولة الكاملة الطاهرة خلقا ووجدانا وعملا ، ويخرج النماذج المثالية ، للبطل المناضل ، فى أهاب العابد الساجد .

ويقوم نظام الفتوة على قاعدة ذهبية ، فكما يفنى الصوفى فى عبادة ربه ، فهو يفنى فى صالح الناس ، فناء ما أحسب ان رسالة خلقية عالمية ، تسامقه أو تدنو منه .

ورسالة الفتوة الصوفية تتشعب وتتسع آفاقها حتى تنطوى داخل اطارها كل أهداف الحياة ووسائلها وغاياتها ، وما يلوذ بها أو يدنو منها .

فمن الفتوة كما يقول منهجها الاساسى ، « ان ترد نفسك الى الله طاهرة كما تقبلتها منه طاهرة » .

وهو مبدأ بالغ الجلال والروعة ، يبسط امام الناس صراطا مستقيما نبيلا ، ويرسم افقا مضيئا جليلا ، للسلوك الانسانى الذى يخضع كل عمل فيه لميزان نورانى حساس يستهدف أن تبقى الروح زكية طاهرة ، كما تسلمها صاحبها من ربه زكية طاهرة .

أنه عقد بين الانسان وربه ، ان يحافظ على طهارة الروح التى هى من أمر الله ، فلا يمسسها سوء ولا يدنو منها رجس ، انها الامانة التى عرضت على السموات والارض ، فأبين حملها ، وأشفقن منها ، وحملها الانسان ، فمن أوفى بعهد الله وأمانته ، فقد سعد فى دنياه واخراه .

ومن الفتوة ، ان تحب للناس ما تحب لنفسك ، بل من الفتوة ان تقدم ما يحب الناس على ما تحب .

ومن الفتوة ان تجعل مالك وقوتك وجاهك ، وكل ما تملك تحت تصرف البشرية كافة ، وان تواسى وتعطف وتعين وترحم ، ولا تنتظر جزاء ولا شكورا .

ومن الفتوة كما يقول الامام الجنيد : كف الاذى ، وبذل الندى ، وترك الشكوى ، واسقاط الجاه ، ومحاربة النفس ، والعفو عن زلات الناس » .

روى الامام القشيرى أن شقيقا البلخى ، سأل جعفر بن محمد عن الفتوة ، فقال : ما تقول أنت : فقال شقيق : أن اعطينا شكرنا ، وان منعنا صبرنا ،

فقال جعفر : الكلاب عندنا بالمدينة كذلك تفعل ! فقال شقيق : يا ابن بنت رسول الله ، ما الفتوة عندكم ، فقال جعفر : ان اعطينا آثرنا ، وان منعنا شكرنا » .

ومن الفتوة ، أن تهب للدفاع عن عقيدتك ووطنك ، وعن مكارم الاخلاق ومحارم الله ، وعن كل نبيل رفيع مما تزكو به الحياة .

لقد كان رسول الله ابراهيم عليه السلام اماما فى الفتوة ، لانه جاد بنفسه للنار ، اثيارا للحق ودفاعا عن العقيدة .

ورسولنا الاكبر صلوات الله عليه ، هو الامام الاعظم للفتوة فى كل مواقفه ، فحينما التهبت الدنيا ودوت من حوله عواصف الشرك والبغى والعدوان ، رفع رأسه الشريف الى السماء وهتف مناجيا مولاه : « ان لم يكن بك على غضب فلا ابالى » .

وحينما اجتمعت قريش حوله بالوعيد والتهديد ، والترغيب والاغراء ، استعصم ،بربه ، وهتف فى جلال وقوة : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن اترك دعوتى الى ربى ما تركتها أو اهلك دونها » .

والفتوة فى التصوف شعار مضىء لفئة من أولى العزم وهبوا أنفسهم لعمل الخير ، أيا كان زمانا ومكانا ، وللتحلى بالمعجز السامى من الاخلاق، وبالتنقل بين محراب العابد التقى ، ودرع الفارس المكافح الأبى .

يقول أبو عبد الله السلمى ، فى رسالته عن الملامتية واصفا لصفاتهم : «من كان فيه اعتذار آدم ، وصلابة نوح ، ووفاء ابراهيم، وصدق اسماعيل، وأخلاق موسى، وصبر أيوب، وبكاء داود، وسخاء محمد صوات الله وسلامه عليهم . ورأفة ابى بكر ، وحمية عمر ، وحياء عثمان ، وعلم على ، ثم هو مع كل هذا لايرى لنفسه فضلا على الناس » .

ويقول الامام القشيرى . « أصل الفتوة ، ان يكون العبد أبدا فى أمر غيره ، تحقيقا لقوله صلوات الله عليه ، لا يزال الله تعالى فى حاجة العبد ما دام العبد فى حاجة أخيه »

ويقول العلامة أبو على الدقاق : « كمال هذا الخلق لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان كل انسان يوم القيامة ، يقول : نفسى ، نفسى ، وهو صلى الله عليه وسلم يقول : أمتى ، أمتى » .

وسئل الامام أحمد بن حنبل عن الفتوة فقال : «ترك ما تهوى لما تخشى» ويقول سهل بن عبد الله التسترى : « الفتوة اتباع السنة » . ويقول الشبلى : « الفتوة الوفاء والحفاظ » ويقول عمر بن عثمان المكى « الفتوة حسن الخلق » ويقول معروف الكرخى : « للفتيان علامات ثلاث ، وفاء بلا خوف ، ومدح بلا جود ، وعطاء بلا سؤال » .

ويقول الشيخ الاكبر محيى الدين بن عربى : « الفتى من يتصف بالقوة، وبالاخلاق الحميدة ، ويستخدم قوته فى خدمة الله ، ونصرة الضعيف ،

ومقاومة الظالم ، وليس له عدو ، ولكن له حساد ومنافسون » .

ويقول ذو النون المصرى : « لما حملت الى الخليفة فى بغداد فيما نسب الى من الزندقة ، رأيت سقاء عليه عمامة وقد ارتدى بمنديل مصرى وبيده كيزان خزف رقاق ، فقلت : أهذا ساقى السلطان ؟ فقالوا : لا ؟ هذا ساقى العامة ، فأخذت الكوز وشربت وقلت لمن معى : أعطه دينارا ، فلم يأخذ وقال : « أنت أسير وليس من الفتوة أن نأخذ منك شيئا » .

وقد روى الامام القشيرى فى باب الفتوة : ان انسانا خرج من نيسابور الى بلدة « نسا » بخراسان واستضافه رجل ومعه جماعة من الفتيان فلما فرغوا من أكل الطعام خرجت جارية تصب الماء على أيديهم ، فأبى الفتى النيسابورى وقال : ليس من الفتوة أن تصب النساء الماء على أيدى الرجال»

وهو أدب اجتماعى نبيل رفيع سبق به المتصوفة الحضارات التى تزعم اليوم اجلال المرأة واحترامها .

ولقد لعبت الفتوة الصوفية دورا خطيرا خلال الحروب الصليبية حتى ليروى لنا القاضى الفاضل ان صلاح الدين الايوبى كان اذا مالت به موازين النصر فى ساحات القتال . أمر الابواق ان تضرب ، وأمر المنادين أن يصيحوا أين أهل الفتوة الاسلامية » .

كما لعبت دورها الخالد فى الفتوحات الاسلامية حيث كانت بطولتها كما كانت أخلاقها منافذ للدعوة والنصر فى كل ساحة من ساحات الجهاد والنضال .

كما أثبتت وجودها ودلت على قوتها فى الفتح التركى الخاطف فى أوربا والبلقان كما يقول ابن بطوطه الذى وصف أفرادها بقوله : « ولم أر فى الدنيا أجمل أفعالا منهم » .

ولقد استطاع هذا النظام الصوفى الرائع أن يحفظ للروح الاسلامية قوتها وبأسها وتساميها فهو الى جوار الايثار والفضائل الخلقية والروحية قوة لله وجهاد فى سبيله .

واننا اليوم لأحوج ما نكون الى تلك القوة الروحية ، الى تلك المثالية الخلقية ، الى تلك الرجولة المؤمنة المناضلة ، الى ذلك البأس والعزم والايمان الصاعد الى الافق الاعلى .

واننا لنهدى ذلك الافق المثالى ،أو تلك الفلسفة الايمانية البانية لقوميتنا العربية الناهضة ، لتكون خطوطها العريضة التى تقيم عليها رسالتها الانسانية ، فى عالم أحوج ما يكون الى تلك الرسالة .

وانها لصراط مستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، والله يهدى الى سواء السبيل .

طه عبد الباقى سرور